شيخ كهل يغلق باب الاجتهاد في تصحيح الحديث الشريف او تضعيفه وشيخ شاب يجزم بأننا لا نستطيع تصحيح الحديث الشريف أو تضعيفه بعقولنا (١)

■ بقلم الدكتور عودة الله منيع القيسي

في هذه المقالة سأُعلق على رأي الشيخ الكهل، على رأي الشيخ الشاب، ولكن انت وأنا نرى من الآن ان الشيخين: الكهل والشاب يلتقيان على موقف واحد، ويؤمنان بمنهج واحد، وهو ان السابقين قالوا كلمة الفصل في الحديث الشريف صحة، وتضعيفاً، فليس لنا الا ان نتبعهم وأبصارنا وبصائرنا معصوبة بقماش ثخين.

❖ **نتفق أولاً:**

أن شيخاً فاضلاً صديقاً قال لي: «حتى نتحاور.. نتفق اولاً» قلت: ماذا تطلب؟ قال: ان نتفق على ان ما اعتبرته كتب الحديث صحيحاً، نعتبره صحيحاً ولا نناقشه! فلم أوافقه طبعاً، لأن طلبه هذا إغلاق لباب الاجتهاد، ولذا فهو يرغب ان نجتر ما قاله السابقون، فنقدم للناس كلاماً مكروراً، لا جدة ولا ابداع فيه، مع ان القدامى انفسهم اجتهدوا، فالإمام ابو حنيفة يقول: «اذا صح الحديث فهو مذهبي» هذا يعني انه كان يجتهد فيما يرد اليه من الحديث، فلا يستشهد الا بما صح عنده والإمامان البخاري ومسلم، كان كل منهما يحفظ عشرات الآلاف من الأحاديث المنسوبة الى الرسول العظيم ﷺ، ولكن لم يدون كل

منهما الا ما صح عنده بعد الاجتهاد، وهكذا غيرهما، حتى يوم الناس هذا، فالشيخ الألباني المعاصر (ت-٢٠٠١م) رحمه الله استخرج من كتب السنن الستة خمسة آلاف حديث ما بين ضعيف وموضوع، وباطل، واستخرج قرابة ثمانين حديثاً ضعيفاً من كتاب «الأدب المفرد» للإمام البخاري، على صدق البخاري، وصحة نيته.

فلماذا يسمح لكل مشتغل بالحديث ان يجتهد، ولا يسمح لي، وأنا في عصر أصبحت الحضارة فيه حضارة عالمية، وأصبحت أدوات البحث، وكشف الصحيح من الضعيف من الحديث والأخبار، اكثر وأوضح، بل ان اعظم ستة أئمة اجتهدوا، قبلوا احاديث واطرحوا اخرى وهم الفقهاء الأربعة والبخاري ومسلم.

هذا وفضلاً عنه فإني اتبعت امرين في التخطئة والتصحيح، لم ينتبه لهما السابقون او حادوا عنهما الأول اني كنت ابدأ بالمتن ثم انتقل الى السند، والثاني اني كنت افضل الادلة والعلل التي تجعلني اصحح حديثاً، او خبراً او أضعفه، والسابقون من قدامى ومحدثين كانوا يحكمون بالصحة او الضعف من دون تفصيل في الأدلة والعلل، غالباً لأنهم اذا صح عندهم السند غالباً صح المتن وهذا(٢) خلل لأن السند لا تفصيل في الحكم على رجاله، بل هي عبارات مقتضبة.

❖ هات أدلة نقلية:

وفي يوم ٢٠٠٥/٨/١١م، تناقشت في قضية التهمة التي ألصقت بالرسول ﷺ -الاشجع والأحزم- مع أحد الفضلاء المختصين، فقلت: هل يعقل ان يجرؤ عقبة ابن ابي معيط على البصق في وجه رسول الله -حاشاه- ﷺ وان يبطحه ويطأ على رقبته (ولتبين الكذبة، زعم ان ذلك كان في دار الندوة، والرسول الاتقى ﷺ ليس من رواد دار الندوة) ثم يترك عقبة هذا الرسول في حالة خور فلا يحرك الرسول ﷺ ساكناً! ان فطرة النبوة تأبى ذلك.

ليعد كل منا الى نفسه والى تجاربه في الحياة، أيقبل بهذا الوضع المزري إلا ضعيف مسكين متهالك جبان؟ وحاشا الرسول ﷺ الاشجع والأحزم والأشهم ان تتطاول اعناق هذه الصفات الدنية، ناظر الى مقامه السامي الذي انزله فيه ربه تعالى وعصمه من الناس، والذي يحرسه عمه ابو طالب وعشيرته بنو هاشم وبنو

عبد مناف.

فقال لي مناقشي: نحن لا نريد حججاً عقلية عاطفية، وانما لا نقبل الا ما يقوله الحديث الصحيح في هذه المسائل!!

أيها الاخوة القراء، نحن أمة سيطر على عقولنا منهج التلقين الذي لا يعنى الا بالحفظ والتذكر، وتفسير الموجود، ولهذا فنحن نقدس النصوص غير المقدسة، مع ان ما نسب الى الرسول الكريم ﷺ من سنة لا يصح ان نقدس منه الا ما ثبت على التمحيص -تمحيص القدامى- وتمحيصنا نحن.

وهذا يعني ان كل حديث يتناقض مع «العقل» ولا يمكن التوفيق بينه وبين العقل هو حديث مردود متناً وان كان صحيح السند، تبعاً لما اجتهد به رجال الحديث حول صحة السند، لأن رجال الحديث لا يعرفون كل محدِّث معرفة شخصية، وإنما رويت له أوصاف عنه، وما أكثر الأسباب التي تجعل كثير من يوثقون من لا يستحق التوثيق، ويضعفون من هو أهل للتوثيق ولهذا تفصيل في مكان آخر من كتابي «العصمتان»(٣).

ولكنني اريد ان اقف عند قول مناقشي: نحن لا نريد حججاً عقلية عاطفية، أقول:

لعله واضح ان حجتي السابقة ليست عاطفية، ولا علاقة لها بالانفعال وانما هي حجة عقلية، لأن الحجة العقلية لا تعني التفكير في فراغ (ما عدا الرياضيات، فالتعامل بها بأرقام لا بواقع مادي) بل تعني: ملاحظة مفردات البيئة، وقوانين الاجتماع وقوانين النفس البشرية، والخروج من ذلك بنتائج علمية، عن طريق المقارنة او الاستقراء او الاستنتاج.

❖ الكون يقوم على قوانين:

واذا كانت مفردات الكون تقوم على قوانين أودعها الله تعالى فيها، فإن الفطرة البشرية تقوم على قوانين كذلك، كل ما في الأمر ان قوانين الفطرة البشرية، هي قوانين تعلم بالضرورة ومن غير تعلم - غالباً- وان كان التعلم يزيد الوعي تنبهاً ولهذا فقوانين الفطرة شبيهة ببديهيات العلم، ولهذا قال تعالى: **﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله﴾** الروم: ٣٠ .

هذا يعني ان الفطرة ثابتة لا تتبدل، ولأنها ثابتة لا تتبدل فهي تقوم على قوانين أو حقائق، يجب ان نأخذها بعين الاعتبار، ونحن نناقش اي موضوع يتعلق بالانسان والمجتمع.

اذن عندما نقول الكلام السابق، ليعد كل منا الى نفسه.. الى آخر الفقرة، فنحن لا نقول حججاً عاطفية، وانما نقول حجة عقلية، نحس بوجود مضمونها في كياننا، كما نحس بتحولات المادة الخارجية، فإذا قلنا: ان الحديد يتمدد بالحرارة، ويتقلص بالبرودة، فنحن نقول حقيقة علمية تقوم على قانون ثابت، وهكذا ما نحس به في فطرتنا فهو يقوم على حقائق ثابتة(٤).

ان علينا ان نعتقد اعتقاداً راسخاً، بما قاله الامام العظيم ابن تيمية في القرن الثامن الهجري (ت٧٢٨) بأن النقل الصحيح لا يتعارض مع العقل السليم، والعكس صحيح، ان العقل السليم لا يتعارض مع النقل الصحيح(٥) ولا يقع التعارض الا اذا كان العقل سليماً والنص النقلي غير صحيح، أو كان النص النقلي صحيحاً، ولكن العقل مصاب بآفة نقص او مرض، او بآفة اتباع الهوى!، وقد كانت لي رؤية أخرى في مقولة «العقل والنقل» اراها تلغي هذه الثنائية وتحل محلها «التكاملية»، فرأيت ان النقل هو «العقل الكلي» والعقل البشري هو «العقل الجزئي» ولهذا فالعقل والعقل لا يتعارضان(٦).

❖ العقل الصحيح لا يخالف العقل المركب:

وأقول: نحن نعتبر ان كل حديث يخالف العقل المركب مردود، خاصة اذا لم يكن في القرآن الكريم ما يؤيد الخبر «الحديث» بشكل مفهوم واضح، ولهذا ترانا لا نقول (معاذ الله): ان الآية القرآنية التي تخالف ادلة العقل مردودة، لأن ادلة العقل مهما تنوعت فأتت من الظروف الاجتماعية، والفطرة الانسانية والبديهيات العقلية، يستحيل ان تختلف مع القرآن، الا اذا لم نحسن فهم موضع الشاهد من القرآن.. فالقرآن الكريم هو العقل الكامل والعقل البشري هو العقل الذي يعتريه بعض النقص.

اما اذا تضافرت ادلة العقل من مصادرها المتنوعة، ولكن تناقضت مع حديث «حكم» بأنه صحيح، ولم يكن التوفيق ممكنا، وليس للحديث ما يؤيده من ايات القرآن، اصبح لا بد من ان نحكم على ان الحديث مردود وانه ليس بحديث على الحقيقة.

بل كيف نحكم على حديث انه مردود متناً، اذا لم نستعمل أدلة العقل المتنوعة او نستعمل بعضها حسب ما يقتضيه المقام، كما استعمل أدلة العقل الأئمة الأربعة

العظام، والامامان صاحبا الصحيحين؟

ان عمى البصيرة وحده، هو الذي يحرم ان نرد خبراً كاذباً لا يؤيده شيء من القرآن، ويتناقض مع ادلة العقل لمجرد ان احد اصحاب كتب الحديث حتى وان كان البخاري أو مسلماً، عده صحيحاً، في حدود معرفته «الناقصة» برجال السند، اذ يستحيل التحقق اليقيني من رجال السند وتحرجه من تسليط ادلة العقل عليه، لأنه اكتسب في الأذهان قدسية بإضافته الى الرسول الكريم ﷺ(٧).

ان حقائق القرآن الكريم وأحكامه وحقائق الحديث النبوي الشريف واحكامه، لا تختلف مع العقل العبقري (والعقول اربعة مستويات)، ولا يختلف معها هذا العقل العبقري، بل ان القرآن الكريم والحديث الشريف والعقل العبقري لا تختلف مع نظام الكون ارضاً وسماءً وقوانينه، ولا يختلف نظام الكون وقوانينه مع القرآن والحديث والعقل العبقري لأن هذه كلها تقوم على نظام واحد، لكي لا تتضارب ولا تتناقض والله تعالى اعلم.

❖ الامام علي رضي الله عنه احجى من هذا القول:

لقد استشهد هذا الشيخ على اننا لا نستطيع ان نحكم على الأحاديث المختلفة الظاهر مع القرآن -أنها غير صحيحة- بعقولنا يستشهد بقول منسوب الى الامام علي ابن ابي طالب رضي الله عنه، وهو: «لو كان الدين بالعقل لكان المسح على باطن الخفين، لا على ظاهرهما» أقول: الامام العظيم علي احجى من قول ذلك، ما السبب؟

ذلك لسببين اثنين: الأول: ان العقل يقول: المسح على ظاهر الخف اقرب الى الصحة من المسح على باطنه، لأن لابس الخف يلبسه داخل حذاء، ولا يمشي به على الأرض، والحذاء -كل حذاء- مغلق باطنه، ولكن قد يكون مكشوفاً ظاهره، وإذن، اذا طال الخف غبار فسيكون على ظاهره، لا على باطنه، وهذا أمر يشهد به الحس، وفضلاً عن هذا، فالمسح على الخفين هو رمز شرعي، وليس للنظافة.

ويشبه هذا من حديث ان الأمر -رمز- شرعي، قوله تعالى: **﴿انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾** التوبة: ٢٨، فالنجاسة هنا ليست نجاسة مادية، وانما هي نجاسة شرعية اعتبارية «او معنوية».

اذن الامام علي اعقل واحجى، وأكبر ادراكاً للمحسوس، وللمعنوي ايضاً من ان

يصدر منه مثل هذا القول الذي يغفل عن ما يحكم به الحس، اما قال الشريف الرضي -وهو من سلالة الامام:

هم انطقوني بالذي لم أفه به

وما آفة الأخبار الا رواتها؟

والسبب الثاني: ان القرآن الكريم حثنا وحضنا وارشدنا، لنستعمل عقولنا في ادراك الأوضاع والظروف والمعاني، لكي نميز بين صحة ما في القرآن وما في اقوال الناس وعقائدهم الفاسدة، فقال تعالى: **﴿أفلا يتدبرون القرآن﴾** مرتين، وقال تعالى: **﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وانتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون﴾** البقرة : ٤٤، وقد وردت **﴿أفلا تعقلون﴾** اربعاً وعشرين مرة، وهذا حث على استعمال العقل، واستغراب من الذين لا يستعملون عقولهم.

وقال تعالى: **﴿أوَ لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون﴾** البقرة: ١٧٠، وقد وردت هذه العبارة وأمثالها اربع عشرة مرة، وهذا استنكار على الذين يتبعون آباءهم ولو كان آباؤهم لا يعقلون، وهذا ابعاد لقول الآباء الذين لا يعقلون.

ووردت عبارة: **﴿ان في ذلك لآية لقوم يعقلون﴾** النحل: ٦٧، ثماني مرات، ووردت عبارة: **﴿ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾** وأمثالها سبع عشرة مرة، فكانت عبارة **﴿يتفكرون﴾** مدحاً للذين يستعملون عقولهم، وهذا بأسلوب غير مباشر، حث على التفكر، ووردت كلمة **﴿الألباب﴾** في القرآن ست عشرة مرة، قال تعالى: **﴿ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون﴾** البقرة: ١٧٩، والألباب هي العقول، ولم ترد مفردة، لم ترد «يا ذا اللب» لأن الغالب ان القرآن يخاطب الجماعة.

❖ النتيجة الأولى:

مادة **«التعقل»** ومشتقاتها، وما يقاربها في المعنى، مثل: **«يتدبرون، يتفكرون، الألباب»** وردت خمساً وتسعين مرة، وفيها كلها حث وحض وارشاد على استعمال العقل، ووردت كلمة **«برهان»** خمس مرات وكلمة **«دليل»** مرة وبذا تكون الكلمات التي وردت حاثة على التفكر حاضة عليه، مئة كلمة وكلمة.

أيجوز لعاقل بعد هذا ان يقول: نحن لا نستطيع ان نحكم بعقولنا على الحديث الذي يخالف ظاهره القرآن بأنه باطل، ولو لم نستطع ان نوفق بين تأويل هذا الحديث وبين القرآن؟!.

وهب الإمام علياً -حاشاه- انه صاحب مقولة الخفين التي بينا بطلانها في ذاتها، أيصح اتخاذ هذا برهاناً على اننا لا نستطيع ان نحكم على ما يسمى حديثاً - بالبطلان- بعقولنا مقابل حث القرآن الكريم، وحضه لنا وارشاده لنا على ان نستعمل عقولنا في فهم كل شيء، وتفهمه وان ما لا يوافق العقل المهتدي بنور الشرع، والمؤمن بأن الشرع هو الهدى: **﴿قل ان هدى الله هو الهدى﴾** البقرة: ١٢٠، هو خرافة أو مكذوب او باطل؟

وما وزن كلام البشر، اذا تعارض مع القرآن، بل ان ما يسمى حديثاً، ولكنه يتعارض في ظاهره وتأويله مع القرآن، في حكم العقول القادرة «عقول العباقرة كالأئمة الأربعة» هو كذب، ومين وباطل، ولم يخرج من بين شفتي الرسول الشريفتين ﷺ لم يخرج من بينهما على الجزم والتعين، بل ان مقولة: «ظاهر للحديث وباطن» هي من تبريرات عصور الانحطاط، التي اغلق أو وورب فيها باب الاجتهاد، لأن اغلاق باب الاجتهاد يحول بين الناس وبين الشك والتدبر والتفكر، والنقد والتمييز بين الصواب والخطأ، والصحة والدخل، في كل امر وفي كل ميدان.

الهوامش:

١- تفصيل ذلك في كتابي «العصمتان» تحت عنوان «لماذا تنبهنا الى ما هو موضوع من السيرة؟».

٢- ان تفصيل ذلك في الجزء الثاني التمهيدي من كتابي (العصمتان) تحت عنوان «دراسة السند قبل المتن خلل».

٣- نجد اسباب الوضع والاختلاف والتوهم، الجزء الثالث من كتابنا السابق.

٤- تفصيل الخلل في توثيق الرواة، في الجزء الأول والثالث من كتابنا السابق.

٥- درء التناقض بين العقل والنقل للامام ابن تيمية.

٦- تجد تفصيل ذلك تحت عنوان «تأصيل للعلاقة بين العقل الكلي والعقل الجزئي» اذ خرجنا من تحليل العقل الكلي والعقل الجزئي وقوانين الكون، ان هذه الثلاثة لا يختلف بعضها مع بعض، بل هي تكون ثلاثة دوائر متقاطعة، والمساحة المشتركة بين العقلين هي ٩٠٪ وكل من العقلين لا يستقل الا بـ ١٠٪، اما قوانين الكون فلا تختلف مع العقل الكلي، ولا مع العقل العبقري ولا بدرجة واحدة، لأن النظام الذي اودعه الله تعالى في هذه الثلاثة واحد.

٧- تفصيل الحديث عن رجال السند، الجزء الثالث من كتابي السابق وعن اسباب وضع الحديث والكذب في توثيق الرجال الجزءان الأول والثالث من كتابي السابق.